

الباب الأول

عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية وعوامل تدهورها في الدلتا

- الفصل الأول : عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية.
- الفصل الثاني: عوامل تدهور الحياة الاقتصادية

الفصل الأول

عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية

أولاً: الموقع الجغرافي.

ثانياً: توافر مواد الخام:

1- الزراعة.

2- الثروة الحيوانية.

3- الثروة المعدنية.

ثالثاً: استتباب الأمن.

الفصل الأول

عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية

من دراسة الحياة الاقتصادية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي، يمكن أن نسجل عدة عوامل، كانت إلى حد كبير وراء الازدهار الملحوظ للحياة الاقتصادية فيه، تلك العوامل التي كانت مجتمعة سببا فيما حققه الإقليم من ازدهار اقتصادي، ويأتي في مقدمتها الموقع الجغرافي، وتوافر مواد الخام الزراعية والصناعية.

أولاً: الموقع الجغرافي:

يعد الموقع الجغرافي لإقليم الدلتا من أهم عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية، فلقد أتاح لها هذا الموقع أن تصبح ملتقى الرحلات البحرية القادمة من الهند والصين وبلاد أوربا، حيث تلتقى بالرحلات البرية وقوافل الأبل القادمة من الشام والعراق وبلاد المغرب العربي.

كما أتاح موقع الدلتا سهولة الاتصال بالصعيد لنقل المنتجات بواسطة النيل يقول ابن بطوطة⁽¹⁾ "وأن بنيلها من المراكب ست وثلاثون ألف للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق".

ومما أدى إلى انتعاش الحياة الاقتصادية وتنشيط حركة التبادل التجاري كثرة الأسواق على طول ضفة النهر من الاسكندرية إلى مصر.⁽²⁾

وصف الرحالة النطيلي⁽³⁾ الذي زار مصر في العصر الفاطمي، حالة الازدهار الاقتصادي في الإقليم بقوله "كانت عامرة بالمدن والقرى والضياح والمسافرون يغدون ويروحون فيما بينها برا ونهرا وبالأحمال".

ومن أبرز مظاهر الازدهار الاقتصادي وجود شبكة واسعة من الطرق الداخلية البرية التي سهلت مرور التجارة عبر الإقليم، فمنها طريق يبدأ من مركز القلعة إلى سرياقوس⁽⁴⁾، ثم إلى بئر الببيضاء إلى مدينة بلبيس وهناك طريق آخر من مركز القلعة إلى

⁽¹⁾ مهذب رحلة ابن بطوطة، الجزء الأول، تحقيق أحمد العوامري وآخرين، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1934م، ص 26.

⁽²⁾ نفسه، ص 25.

⁽³⁾ رحلة بنيامين، الطبعة الأولى، ترجمة غرار حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ص 174-175.

⁽⁴⁾ سرياقوس من القرى القديمة التابعة لمركز شبين القناطر محافظة القليوبية، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، الجزء الأول، القسم الثاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1955م، ص 35.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

مدينة قليوب ثم إلى منوف العليا مارا بالمحلة إلى التحريرية⁽¹⁾، فضلا عن طريق غرب الدلتا الذي يبدأ من القلعة مارا باقليم البحيرة إلى الاسكندرية، وكذلك طريق شرق الدلتا الذي يبدأ من السعدية⁽²⁾، ويمر بالخطارة⁽³⁾، وقبر الوايلي⁽⁴⁾، إلى قطيا⁽⁵⁾.
وطلّأت على رأس الدلتا⁽⁶⁾، تغيرات مختلفة عبر العصور، ومن الثابت في العصر الاسلامي بأنها شملت المنطقة المحصورة بين فرع رشيد ودمياط من عند شطونوف⁽⁷⁾، حيث يتجه فرع رشيد غربا ويصب في البحر المتوسط⁽⁸⁾.
وشهدت الدلتا تقسيمات إدارية في العصر الفاطمي، أشار إليها المسيحي والقضاعي، فالمسيحي يتحدث عن التقسيم الإداري في عصر الحاكم بأمر الله (386هـ/985م = 411هـ/1021م)⁽⁹⁾.

- (1) التحريرية قرية من عمل الغربية. المقرئى : الخطط، ج 1، ص 226.
- (2) من القرى القديمة التابعة لمركز بلبس بمحافظة الشرقية، وكان اسمها الأصلي المحروقة، انظر : محمد رمزي : القاموس الجغرافي، القسم الثاني، الجزء الأول، ص 98.
- (3) من القرى القديمة التابعة لمركز فاقوس بمحافظة الشرقية.
- محمد رمزي : القاموس الجغرافي، القسم الثاني، ج 1، ص 112.
- (4) قبر الوايلي من أعمال الشرقية.
- ابن مماتي: قوانين الدواوين ، جمعة وحققه د/ عزيز سوريال عطية، الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة ، 1943م، ص 165.
- (5) القلقشندى : صبح الأعشى، الجزء الرابع عشر، القاهرة، 1938م، ص 376.
- قطيا بلدة من الجفار يحصل بها العشر من التجار وهي في نهاية الحدود بين مصر وبلاد الشام ولا يسمح لأحد بالمرور من مصر إلى الشام أو من الشام إلى مصر إلا بورقة.
- ابن دقماق: الانتصار، الجزء الخامس، القسم الثاني، المكتب التجارى للطباعة. بيروت، ص 53.
- (6) كانت توجد بلدة الدلتا القديمة على رأس الجزيرة التي ينحصر بينهما المياه وعرفت بالدلتا لمشابته شكله لحرف الدال وهو حرف هجائي رومي والدلتا مثلثة الشكل قاعدتها ساحل البحر الرومى من الطينة إلى هرقليم وضلعها الشرقى فرع الطينة المعروف باسم البيلوزى والضلع الغربى الفرع الكانوبى. انظر:
على مبارك: الخطط التوفيقية، الجزء الحادى عشر، الطبعة الأولى، بولاق 1035هـ، ص 18.
- (7) بلدة من كور الغربية. انظر:
- ياقوت: معجم البلدان ، الجزء الثالث، بيروت، ص 345.
- البغدادى: مرصد الاطلاع، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، 1954م، ص 798.
- (8) التطيلي: رحلة بنيامين، ص 147، ياقوت: معجم البلدان، ج 3، ص 344.
- الخالدى : المقصد الرفيع (مخطوط) ورقة 83، جامعة القاهرة رقم 24045
- البغدادى: مرصد الاطلاع ، ج 2، ص 798.
- المحلى: مبدأ النيل على التحرير (مخطوط) ورقة 25، دار الكتب المصرية رقم 381 جغرافيا.
- الحجازى: النيل الرائد فى النيل الزائد (مخطوط) ورقة 14- 15، دار الكتب المصرية، رقم 380 جغرافيا.
- ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد (مخطوط) ورقة 4، دار الكتب المصرية رقم 429 جغرافيا.
- ابو السرور: قطاف الأزهار (مخطوط) ورقة 6 دار الكتب المصرية رقم 457 جغرافيا.
- (9) الامام الحاكم بأمر الله أبو على منصور العزيز نزار بن المعز العبيدى تولى المملكة بعد أبيه بوصية منه سنة 386هـ/ 985 م واختفى بجبل المقطم فى شوال 411هـ/ 1021. انظر:

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

ومنها الحوف الشرقي⁽¹⁾، وبطن الريف⁽²⁾، ثم الحوف الغربي⁽³⁾، أما القضاء (454هـ) قسمها إلى أربع أقسام: الحوف الشرقي والحوف الغربي وبطن الريف والجزيرة⁽⁴⁾، ومن أهم مدن الحوف الشرقي التي ساهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية، بفضل موقعها وقلوب مدينة كبيرة⁽⁵⁾، شرقي النيل⁽⁶⁾، تبعد عن القاهرة حوالى ستة أميال⁽⁷⁾، وهى مقر الولاية⁽⁸⁾، ومقام متولى الحرب السعيد⁽⁹⁾، وساعد موقعها بالقرب من القاهرة على امداد القاهرة بحاجتها من الفواكه التي تتميز برخص اسعارها.⁽¹⁰⁾

= - ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك، تحقيق سعيد عاشور، جامعة ام القرى، السعودية، 1982م، ص 204.

- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، مطبعة كوستاتوماس، القاهرة، 1971م، ص 176.
(1) يقع الحوف الشرقي فى الجزء الشرقى للدلتا، ويحتوى على 529 قرية، فيما عدا المنى فى سبع كور، كورة أتريب ، كورة بنو (بنا) وكورة نما وكورة بسطة وكورة طرابية وكورة هريبط وكور صا (صان) وابليل. انظر:

المقريزى : الخطط، ج1، ص 73.

(2) يشمل المنطقة المحصورة بين فرعى رشيد ودمياط وعدد قراها 680 قرية فيما عدا المنى والكفور كورتا دمسيس ومنوف، وكورة تاطورة منوف، كورة سخا ، كورة بيده والافراحون ، كورة البشرد ، كورة نفرا ، كورة بيا وبوصير كورة سمنود، كورة نوسا، كورة الأوسية، وكورة البجوم وتئيس ودمياط، انظر:

المقريزى: الخطط، ج1، ص 73.

(3) يقع الحوف الغربى فى غرب الدلتا وعدد القرى 449 قرية، فيما عدا المنى والكفور فى ثلاث عشرة كورة صا ، شباس ، البدقون، حيز البدقون ، الشراك والقرى، ترنوط، خربتا ، قرطا، مصبيل ، والمليدس ، أنحور ورشيد، البحيرة والحصص بالاسكندرية.

(4) المقريزى : الخطط، ج1، ص 73.

تشتمل الجزيرة على عمل المنوفية والغربية.

القلقشندى : صبح الأعشى، ج3، ص 405.

(5) (ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، تصحيح بولس راويس، باريس 1893م، ص 34.

(6) (العمرى : مسالك الأبصار، الجزء الأول، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى للأثار الشرقية، القاهرة، ص 99.

(7) (ابن جبير : رحلة ابن جبير، القاهرة، ص 47.

الميل أربعة آلاف ذراع أو 1848 مترا والسنة أميال حوالى 11088 متر أى 11 كيلو مصر و 88 متر .

انظر:

صبحى الصالح : النظم الاسلامية، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت، 1982م، ص 417.

(8) القلقشندى : صبح الأعشى، ج3، ص 399.

(9) (ابن الوردى : فريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الثانية، مكتبة مصطفى القبلى الحلبى ، القاهرة، ص 34.

- ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ج5، ص 47.

(10) (ابن دقماق: نفس المصدر والصفحة.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

وكذلك مدينة بلبيس⁽¹⁾، قصبة الحوف الشرقي، وهي مقام والي الحرب⁽²⁾، يقول القرمانى⁽³⁾، "بلبيس مدينة قديمة بمصر، كثيرة الخيرات عظيمة البركات، ويمر ببلبيس بحر ابن منجا.⁽⁴⁾

وتشتهر بكثرة النخيل⁽⁵⁾، والبساتين⁽⁶⁾، وبلبيس أسواق وفنادق ومدارس⁽⁷⁾، وهي محط الدرب الشامي⁽⁸⁾، وتعرف بباب الشام⁽⁹⁾، ومن بلبيس إلى المنصف مرحلة، تبعد عن القلزم مرحلة وعن الفسطاط مرحلة⁽¹⁰⁾، وبين بلبيس وعين شمس حوالى مسيرة نصف يوم⁽¹¹⁾، كما تبعد عن القاهرة حوالى عشرة فراسخ.⁽¹²⁾ وتقع العباسية⁽¹³⁾، على رأس

(1) عرفت بلبيس في التوراة بأرض جاشان.

المقریزی: الخطط، ج1، ص 183.

(2) المقدسى: أحسن التقاسيم، الطبعة الثانية، ليدن 1967م، ص 193.

- الخالدي: المقصد الرفيع (مخطوط) ورقة 85.

- أبو الفداء: تقويم البلدان باريس 1840م، ص 119.

- ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج5، ص 51.

(3) أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، ص 432.

(4) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 119.

(5) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 119، وابن دقماق: الانتصار، ج5، ص 51.

(6) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، ج1، ص 43.

- ابن دقماق: المصدر السابق، ص 51.

- المقریزی: الخطط، ج1، ص 184.

(7) ابن دقماق: المصدر السابق، ص 51.

- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 401.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 401.

(9) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بئر سبورج 1865م، ص 231.

(10) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص 214.

الفرسخ ثلاثة أميال ويكون طوله 5544 متر فالعشرة فراسخ حوالى 55 كيلو متر، و 400 متر

انظر صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص 417.

(11) التطيلي: رحلة بنيامين، ص 174.

(12) السيوطي: لب اللباب في تحرير الانساب، مكتبة المثنى، بغداد، ص 42.

العشرة فراسخ تعادل حوالى 55 كيلو متر و 440 متر. انظر:

صبحي الصالح: المرجع السابق، ص 417.

(13) بلدة العباسية تنسب إلى العباسية بنت أحمد بن طولون التي خرجت لوداع بنت اخيها قطر الندى بنت

خماوريه بن احمد بن طولون زوج الخليفة العباسي المعتصم بالله (279-289هـ) وعندما خرجت

متوجهة إلى العراق شيدت العباسية في هذا المكان قصرا. انظر:

- ياقوت: معجم البلدان ج4، ص 75 القزويني: آثار البلاد واخبار العباد، بيروت، 1960م، ص

220.

- أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 108. والمقریزی: الخطط، ج1، ص 232.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

الطريق الذى يربط مصر ببلاد الشام⁽¹⁾، بين بلبيس والصالحية من أرض السدير⁽²⁾، إلى الشمال من بلبيس على بعد مرحلة⁽³⁾، والعباسة إحدى نزعات مصر وهى كثيرة الأشجار⁽⁴⁾، وتبعد عن القاهرة حوالى عشرة فراسخ⁽⁵⁾، وعن بدر جبل الواقعة فى نهاية الحوف الشرقى حوالى ثلاثة وأربعين فرسخا⁽⁶⁾، وتلاشى أمر العباسة فى العصر المملوكى عندما بنى الملك الصالح نجم الدين⁽⁷⁾، أيوب ت 647هـ / 1249م مدينة الصالحية⁽⁸⁾.
كما نرجح أن مدينة فاقوس⁽⁹⁾، شاركت فى ازدهار الحياة الاقتصادية فى نهاية حدود مصر من ناحية الشام⁽¹⁰⁾، وعلى الطريق الذى يربط مصر بالفرما يقول الأديسى⁽¹¹⁾ " والطريق من مصر إلى الفرما من مصر إلى بلبيس مرحلة إلى فاقوس مرحلة وهى مدينة".

= - القرماني: أخبار الدول، ص 494.

- والمقريزى قد جانبه الصواب فيذكر فى مستهل حديثه عن العباسة بأنه ولد فيها العباس بن أحمد بان طولون سماه أبوه بالعباس نسبة إلى المدينة التى ولد بها وفنفس الصفحة يذكر المقريزى بأن تسميتها بالعباسة نسبة إلى العباسة نبت احمد بن طولون. انظر المقريزى : الخطط، ج1، ص 232.

⁽¹⁾ (ياقوت : معجم البلدان ج4، ص 75.

- البغدادى: مرصد الاطلاع، ج2، ص 913.

⁽²⁾ (المقريزى : الخطط، ج1، ص 232.

⁽³⁾ (أبو الفداء: تقويم البلدان ص 108.

⁽⁴⁾ (القزوينى: آثار البلاد، ص 146-147.

⁽⁵⁾ (ياقوت : معجم البلدان ، ج4، ص 75، والبغدادى: مرصد الاطلاع، ج2، ص 913.

- العشرة فراسخ تعادل 55 متر و 440 متر.

⁽⁶⁾ (ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صمعا ، جوالنيج 1846م، ص 39.

⁽⁷⁾ (الملك الصالح نجم الدين أيوب من سلاطين الدولة الأيوبية توفى بالمنصورة فى 15 شعبان سنة 647هـ.

زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة، الجزء الأول، أخرجه د/ زكى محمد حسن، ود/

حسن احمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول 1951م، ص 151.

⁽⁸⁾ (المقريزى : الخطط، ج1، ص 232.

شيد الملك الصالح نجم الدين ايوب مدينة الصالحية فى اول الرمل بين مصر والشام لنزول العسكر عند ذهابهم إلى الشام. انظر:

محمد رمزى : القاموس الجغرافى، القسم الثانى، الجزء الأول، ص 112.

⁽⁹⁾ (فاقوس من المدن القديمة ذكرها جواتييه باسمها Pakes والرومى Aphrauspolis والقبطى Fokoussa كما وردت فى كشف الاسقفيات هكذا فاقوس Arabia = Iarabia وسمى هذا القسم Arabia لاتصالها ببلاد العرب انظر:

محمد رمزى : القاموس الجغرافى، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،

1955م، ص 116.

⁽¹⁰⁾ (ياقوت : معجم البلدان، ج4، ص 232. والبغدادى: مرصد الاطلاع ، ج3، ص 1013.

⁽¹¹⁾ (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن 1866م، ص 346.

وتعد الفرما⁽¹⁾، من أعظم مدن الحوف الشرقي التي ساهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية فهي مفتاح مصر الشرقي⁽²⁾، تقع على ساحل البحر المتوسط⁽³⁾، من ثغور مصر⁽⁴⁾، وهي قصبة الجفار⁽⁵⁾، تحتل موقعا استراتيجيا فهي مجمع للطرق⁽⁶⁾، فسهل وفود الجاليات التجارية من كافة البلاد من الروم والفرنجة وقبرص ومن سواحل بلاد الشام والعراق⁽⁷⁾، عن طريق البر والبحر يقول ابن حوقل⁽⁸⁾ " يرد التجار إلى الفرما في البر والبحر ليلا ونهارا" وكانت الفرما في العصور السابقة للفتح العربي حصن مصر الشرقي، وشهدت معارك حربية طاحنة عبر العصور⁽⁹⁾، وتبعد الفرما عن تنيس حوالي فرسخين في البحيرة⁽¹⁰⁾، ومن الفرما إلى قطيا مسيرة يوم.⁽¹¹⁾

- (¹) كانت مدينة الفرما تعرف باسم Avaris او بيلوز وتقع بالقرب من مدينة بورسعيد، انظر: اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بولاق 1314هـ، ص 72.
- (²) اليعقوبي: البلدان، ليدن 1891، ص 337.
- (³) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، 1979م، ص 136.
- المقدسي: احسن التقاسيم، ص 195.
- الوطواط: مباهج الفكر ومناهج العبر، الطبعة الأولى، تحقيق عبد العال الشامي، الكويت، 1981م، ص 137.
- ابو الفداء: مصدر سابق، ص 106، والبغدادى: مرصد الاطلاع، ج3، ص 1030-1031.
- (⁴) الوطواط: مصدر سابق، ص 137.
- (⁵) الجفار منطقة رملية يصعب السير فيها للمسافرين وتجفر فيه الأبل انظر:
- ابو الفداء: مصدر سابق، ص 109، والمقريزي: الخطط، ج1، ص 189.
- العمرى : مسالك الأبصار، ص 94 والجفار منقطع العمران. انظر.
- البكرى: معجم ما استعجم ، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1947م، ص 386.
- ويقع الحفار في الجزء الشرقي للحوف ويدخل في حوزته خمس مدن هي الفرما والبقارة والواردة والعريش ورفع انظر المقريزي : المصدر السابق، ص 189.
- ويحدد الجغرافيين العرب الجفار من بحر الروم فيمتد من رفح إلى بحيرة تنيس ومن بحيرة تنيس إلى القلزم إلى تية بنى اسرانييل اربعين فرسخا في اربعين فرسخا.
- الاصطخرى : المسالك والممالك: تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، 1961م، ص 42.
- ابن حوقل: المصدر السابق، ص 148، والقزويني: آثار البلاد، ص 174.
- ابو الفداء: المصدر السابق، ص 109، وابن دقماق: المصدر السابق، ص 52.
- المقريزي : المصدر السابق، ص 213.
- (⁶) المقدسي: المصدر السابق، ص 195.
- (⁷) ابن زولاقي : فضائل مصر (مخطوط) ورقة 17، دار الكتب المصرية رقم 3591 تاريخ ميكروفيلم 41336.
- (⁸) صورة الارض، ص 136.
- (⁹) ابن هشام: السيرة النبوية ، القسم الأول، الجزء الأول، الطبعة الثانية، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، 1955م، حاشية (9).
- (¹⁰) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص 42.
- (¹¹) اليعقوبي : البلدان، ص 106، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 382.

ولأهمية مدينة الفرما كانت محط أطماع الفرنجة وأغاروا عليها سنة 545هـ 1150 فأحرقوها وخربوها. (1)

ومن أهم مدن بطن الريف ثغر دمياط (2)، الذي شارك في ازدهار الحياة الاقتصادية فيقع على الشاطئ الشرقي لفرع النيل من البحر المتوسط (3)، وهو من أعظم ثغور الاسلام وينحدر نهر النيل شمال دمياط ويصب في منطقة الأشتوم. (4)

ودمياط من أعظم الموانئ التي ترسو فيها المراكب (5)، ونالت إعجاب ابن بطوطة (6)، إذ قال "وهي مدينة فسيحة الأفطار متنوعة الثمار، عجبية الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب". وتشتهر بالسواق والحمامات (7)، وكثرة الفواكه (8)، وتبعد عن البحر حوالي فرسخ ونصف (9)، ومن دمياط إلى رشيد مسيرة يومين (10)، وإلى سرديوس مرحلة (11)، وتبعد عن تنيس مسافة نصف يوم (12)، وعن بحيرة التماسيح مسيرة ثلاثة أيام. (13)

(1) ابن دقماق: الانتصار، ص 53، والمقرئزي: الخطط، ج1، ص 212.

(2) دمياط كلمة سريانية أصلها دمط بمعنى القدرة تنويه إلى ملتقى العذب والملح، انظر:

- المقرئزي: المصدر السابق، ص 213.

- القرمانى: اخبار الدول، ص 450.

(3) المقدسى: احسن التقاسيم، ص 202.

- ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قريبط جينس، تطوان، 1958، ص 82.

- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص 472-473.

- القزويني: آثار البلاد، ص 129.

- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 117.

- البغدادى: مرصاد الاطلاع، ج2، ص 536.

- Encyclopaedia Britannica Art Demaitta

(4) ياقوت: معجم البلدان: ج1، ص 472-473 القزويني: آثار البلاد، ص 129.

- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 117، الاشتوم هي فوهة البحر ومدخله.

- ابن حوقل: صورة الارض، ص 131.

(5) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 35.

(6) مهذب رحلة ابن بطوطة، ج1، ص 23.

(7) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 117، ابن دقماق: الانتصار، ص 81.

- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 402.

(8) المقدسى: احسن التقاسيم، ص 214.

(9) طافور: رحلة طافور، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، 1967م، ص 59.

الفرسخ ونصف حوالي 8 كيلو متر و 316 متر.

(10) الادريسي: نزهة المشتاق، ص 331.

(11) المقدسى: المصدر السابق، ص 214.

(12) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص 472، القزويني: آثار البلاد، ص 193.

- ابن زهير: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الكتب، القاهرة، 1969م، ص 54.

(13) التطيلي: رحلة بنيامين، ص 179.

كما شاركت المدن المجاورة لدمياط بموقعها الجغرافي في ازدهار الحياة الاقتصادية في مجال صناعة النسيج فمنها مدينة شطا على ساحل البحر⁽¹⁾، إلى الشرق من دمياط على بعد ثلاثة أميال⁽²⁾، وتشتهر بصناعة الثياب الشطوية⁽³⁾، وكذلك دبيق المشهورة بصناعة الثياب والعائم الشرب الملونة⁽⁴⁾.

وشاركت مدينة ابوان في الازدهار الاقتصادي بسبب موقعها على نهر أشموم بين البسراط وأشموم بالقرب من دمياط⁽⁵⁾، وتعرف بالأبوانية ويعتبرونها كورة مستقلة⁽⁶⁾، وغالبية سكانها نصارى⁽⁷⁾، وينسب إليها الشراب البوانى⁽⁸⁾.

وكانت مدينة تنيس من أعظم مدن بطن الريف⁽⁹⁾، التي ساهمت بدور فعال في ازدهار الحياة الاقتصادية، فهي جزيرة محصورة بالمياه بين الفرما ودمياط⁽¹⁰⁾.

ولا جدال في أن سر ازدهار تنيس في مجال التجارة والصناعة يرجع إلى موقعها الفريد ففي مجال التجارة حققت تقدماً هائلاً يتضح ذلك من قول المقدسى⁽¹¹⁾ "تنيس هي بغداد الصغرى وجبل الذهب ومتجر الشرق والغرب".

- (¹) (اليقوبى: البلدان ص 338، ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص 342.
- القزوينى: آثار البلاد، ص 209، البغدادى : مراصد الاطلاع، ج2، ص 797.
- (²) (ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص 342، البغدادى: مراصد الاطلاع، ج2، ص 797.
- (³) (اليقوبى : البلدان، ص 338، ياقوت : معجم البلدان، ج3، ص 342.
- القرمانى: اخبار الدول، ص 457.
- (⁴) (المقريزى : الخطط، ج1، ص 226، ابو السرور: قطاف الأزهار (مخطوط) ورقة 33.
- (⁵) (البغدادى : مراصد الاطلاع، ج1، ص 246.
- (⁶) (ياقوت : المشترك، ص 11.
- (⁷) (البغدادى : مراصد الاطلاع، ج1، ص 20.
- (⁸) (ياقوت: المشترك، ص 11.
- البغدادى : مراصد الاطلاع، ج1، ص 20.
- (⁹) (السمعانى: الانساب، الجزء الثالث، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى، حيدر أباد الهندن 1962، ص 98.
- ابن دقماق: الانتصار، ص 78.
- تنيس بكسر التاء وكسر النون المشددة ويا آخر الحروف وسين مهملة. انظر: المقريزى: الخطط، ج1، ص 176، ابن دقماق: الانتصار، ص 78.
- (¹⁰) (ياقوت : معجم البلدان، ج2، ص 51-52.
- القزوينى: آثار البلاد، ص 117.
- البغدادى: مراصد الاطلاع، ج1، ص 578-579.
- (¹¹) (أحسن التقاسيم، ص 201.

وكانت تنيس مرفأً عظيماً ، حيث يتجمع فيه السفن القادمة من الشام والعراق⁽¹⁾، فضلاً عن مرابطة السفن بكثرة وبصفة دائمة فيذكر ناصر خسرو⁽²⁾، الذي زار المدينة في العصر الفاطمي أنه "كان يرباط حولها ألف سفينة منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان". كما كانت تنيس ذات تربة خصبة وأشجار متنوعة⁽³⁾، وانتشرت المدن مثل الجزائر حول تنيس كدميره ودبقوا (دبيق) وشطا⁽⁴⁾، واستخدمت السفن كوسيلة للاتصال بين مدنها⁽⁵⁾، ويحيط بتنيس عدة قرى منها تونة⁽⁶⁾، التي تصنع كسوة الكعبة وسمناى التي غلب عليها ماء البحر والقيس⁽⁷⁾، والطينة بين الفرما وتنيس⁽⁸⁾، وهى مرفأً للسفن يفضى إلى تنيس⁽⁹⁾، والمسافة من مصر إلى تنيس حوالى تسعة أيام⁽¹⁰⁾، وتبعد عن الاسكندرية مسيرة أربعة أيام. ⁽¹¹⁾

ومن مدن الحوف الغربى التى ضربت بسهم وافر فى ازدهار الحياة الاقتصادية الاسكندرية فكانت وما تزال من أكبر مراكز التجارة العالمية بفضل موقعها الجغرافى الفريد على ساحل البحر المتوسط⁽¹²⁾، وهى أعظم ثغور الاسلام⁽¹³⁾، وأعظم مدن مصر⁽¹⁴⁾، والعالم⁽¹⁵⁾، ويفد إلى الاسكندرية التجار من كافة انحاء العالم بطريق البر والبحر للتجارة⁽¹⁶⁾، ويؤكد تلك الحقيقة كل من المراكشى والعمرى فيذكر المراكشى⁽¹⁷⁾ أن

⁽¹⁾ (اليقوبى : البلدان، ص 340.

⁽²⁾ (سفرنامه، ص 39.

⁽³⁾ (المسعودى : مروج الذهب، الجزء الأول، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد، بيروت، ص 348.

⁽⁴⁾ (ابن حوقل : صورة الأرض، ص 146.

⁽⁵⁾ (الاصطخرى: المسالك، ص 41، وابن حوقل: صورة الأرض، ص 146. - الادريسي : نزهة

المشتاق، ص 337، ابن دقماق: الانتصار، ص 146.

⁽⁶⁾ (المقريزى: الخطط، ج1، ص 181-182.

- الذهبى : المشتبه ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تحقيق على محمد الجاوى، دار حياة الكتب

العربية ، القاهرة، 1962م، ص 101.

⁽⁷⁾ (المقريزى : الخطط، ج1، ص 181-182.

⁽⁸⁾ (ياقوت : المشترك، ص 299.

⁽⁹⁾ (ناصر خسرو : سفرنامه، ص 37.

⁽¹⁰⁾ (الادريسي : نزهة المشتاق، ص 331.

⁽¹¹⁾ (الزهرى: الجغرافية، ص 49.

⁽¹²⁾ (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 113.

⁽¹³⁾ (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص 39.

⁽¹⁴⁾ (ابن دقماق: الانتصار، ص 116، والخالدى : المقصد الرفيع (مخطوط)، ورقة 80.

⁽¹⁵⁾ (المقريزى : الخطط، ج1، ص 114.

⁽¹⁶⁾ (ابن شاهين : المصدر السابق، ص 41.

⁽¹⁷⁾ (الاستبصار ، ص 100.

"الاسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها وحسن منظرها وارتفاع مبانيها واتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها وهي بركة وبحرية" أما العمرى⁽¹⁾ ، فيذكر أن "وإليها تهوى ركائب التجار برا وبحرا من كل فج عميق ومكان سحيق وليس في الدنيا نظير شرابها وطرانها المعمول والمحمول إلى أقطار الأرض شرقا وغربا".

كما أتاح موقع الاسكندرية أن تصبح أعظم المراكز التجارية فازدهرت أسواق المدينة التي يفد إليها التجار من كافة أنحاء العالم⁽²⁾ "شعوب لا حصر لها"⁽³⁾ . ويؤيد الوطواط⁽⁴⁾ (ت 718هـ/ 1318م) على ما ذهبنا إليه من أهمية الاسكندرية للتجارة العالمية بعبارات بليغة بقوله " فالوصف يقصر عنها وأن أطنب الوصف".

وهكذا ساعد الموقع الجغرافي الفريد لمدينة الإقليم الواقعة على ساحل البحر المتوسط كالاسكندرية ودمياط أو بالقرب منه كالفرما وتنيس أو المدن الواقعة على طريق التجارة البرى المؤدى إلى بلاد الشام والحجاز كمدينة بلبس والعباسة في ازدهار الحياة الاقتصادية فكانت الدلتا أشبه بمستوده بشرى عظيم يكتظ بالتجار من مختلف أنحاء البلاد، مما أدى إلى نشاط حركة التجارة وانتعاش الحياة بالإقليم وانعكس ذلك بطبيعة الحال على الأهالى ومستوى المعيشة.

ثانيا: توافر مواد الخام:

(1) الزراعة:

كانت الدلتا وما زالت تقع فى وسط منطقة زراعية خصبة، فاشتهرت بكثرة المحاصيل الزراعية وساعد على ازدهار النشاط الزراعى بالإقليم توافر مياه الرى فيذكر الخالدي⁽⁵⁾ أن "الوجه البحرى وهو أرطب كثير الفاكهة سهل الأرض كثير الأنهار" كما يمتدح القلقشندي⁽⁶⁾ منطقة الدلتا بقوله " وهذا الوجه - الوجه البحرى - أرطب الوجهين وأقلهما حرا وأكثرها فاكهة وأحسنها مدنا".

(1) مسالك الأبصار، ص 88.

(2) التطيلي : رحلة بنيامين، ص 178.

(3) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، الجزء الأول، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د/ عز الدين فودة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص 58.

(4) مباحث الفكر، ص 138.

(5) المقصد الرفيع (مخطوط) ، ورقة 85.

(6) صبح الأعشى، ج3، ص 298.

وكان مناخ الاقليم يتميز بالرطوبة ، فساعد على نمو كثير من الأشجار كالكرام واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين⁽¹⁾، كما تميزت أرض الدلتا بخصوبتها فاشتهرت منطقة رشيد بجودة غلتها⁽²⁾، وانتشرت مزارع القمح في الحوف الشرقى بمشتول الطواحين⁽³⁾، التي كانت تميز الحجاز من الدقيق والكعك ويذكر المقدسى أنها بلغت حوالى ثلاثة آلاف حمل حمل فى كل اسبوع من حبوب ودقيق.⁽⁴⁾

كما اهتم سكان الدقهلية والمرتاحية بزراعة محصول الأرز على الماء السايح (الوفير)⁽⁵⁾ ومن المحاصيل الزراعية التى أثرت فى ازدهار الحياة الاقتصادية بالاقليم واكتسبت شهرة فائقة، وحظيت باهتمام الجغرافيين والمؤرخين اللسان⁽⁶⁾ ذو الفائدة الطبية فكان يحمل إلى الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين وأعيان النصارى من الحبشة والروم والفرنج⁽⁷⁾، فاشتهرت قرية المطرية⁽⁸⁾، بزراعته وليس فى جميع العالم منطقة تنافسها فى زراعته.⁽⁹⁾

(¹) الكندى: فضائل مصر، تحقيق ابراهيم احمد العدوى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1971م، ص 47.

- المسعودى: التنبيه والاشراف، تصحيح عبد الله اسماعيل الصاوى، المكتبة العصرية، بغداد، 1938، ص 20.

- ابن زولاق : فضائل مصر (مخطوط) ورقة 52.

- الغزنائى : تحفة الالباب ونخبة الاعجاب، المطبعة الصوفية، باريس 1925م، ص 207

(²) المراكشى : الاستبصار ، ص 89.

(³) مشتول الطواحين من قرى مركز بلبيس بمحافظة الشرقية. انظر:

- محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى، الجزء الأول، ص 104.

(⁴) احسن التقاسيم ، ص 195.

(⁵) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص 34.

- المقرئى : الخطط، ج1، ص 230.

(⁶) اللسان شجر كثير الورق، انظر : ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص 343.

(⁷) العمرى: مسالك الأبصار ، ص 68.

- أبو السرور : قطاف الأزهار (مخطوط) ورقة 34.

(⁸) المطرية من قرى الضواحي بالقرب من عين شمس.

- ابن دقماق : الانتصار، ص 45.

(⁹) الجاحظ: التبصر بالتجارة، نشر وتصحيح السيد حسن حسنى، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1935م، ص 25.

- الاصطخرى : المسالك، ص 42.

- ناصر خسرو : سفرنامه، ص 56.

- الادريسي : نزهة المشتاق، ص 326.

- الهروى: الاشارات لمعرفة الزيارات، نشر وتحقيق حائين سورديلى - طومين، المعهد الفرنسى، دمشق 1953م، ص 34.

وساعد توفر المواد الخام الزراعية كالقطن والكتان على قيام نهضة صناعية فازدهرت مراكز صناعة النسيج في دمياط وتنيس وشطا ودبيق والاسكندرية، ونلمس ذلك بوضوح من خلال إشارات الجغرافيين والرحالة بأسهاب ونسوق نماذج على سبيل المثال- لا الحصر- اشتهرت مدينة دمياط بصناعة قماش القلموني⁽¹⁾، بألوانه المختلفة كالمعلم والمطرز ومناشف الأبدان والأرجل وكان يوزع على سائر ملوك العالم آنذاك.⁽²⁾ كما ارتفعت أسعار المنسوجات فبلغ سعر الثوب الرفيع الذى يخلو من الذهب ألف درهم⁽³⁾، ويضيف ياقوت⁽⁴⁾، عن مدينة دمياط قوله " وأخبرنى بعض وجوه التجار وثقاتهم أنه بيع فى سنة 398هـ حلتان دمياطيتان بثلاثة آلاف دينار وهذا ما لم يسمع بمثله فى بلد". وكذلك ازدهرت صناعة المنسوجات فى مدينة تنيس فكانت تحاك بها ثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى العالم⁽⁵⁾، وثمة دليل على ازدهار المنسوجات وشهرتها العالمية يتضح من محاولة ملك فارس الحصول على كسوة السلطان فأرسل وفدا إلى تنيس يحمل مبلغ عشرين ألف دينار وظلوا بالمدينة عدة سنوات ولكن فشل مسعاهم.⁽⁶⁾ واشتهر الاقليم بالنخيل فكان بالفرما النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا، ولا يوجد هذا النوع بالبصرة والحجاز واليمن ولا غيرها وبلغ وزن الواحدة من البسر حوالى عشرين درهما وطولها نحو الشبر.⁽⁷⁾

- = - عبد اللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار، ص 23.
- القزويني: آثار البلاد، ص 150.
- ابن الوردي: جريدة العجائب، ص 153.
- البغدادي: مرصد الاطلاع، ج3، ص 1283.
- ابو السرور: قطاف الأزهار (مخطوط) ورقة 34.
- ابن اياس: بدائع الزهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، بولاق، 1311هـ، ص 5.
- القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، 283.
- (1) نوع من القماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، ناصر خسرو: سفرنامه، ص 38.
- (2) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص 473.
- (3) ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص 342.
- (4) معجم البلدان، ج2، ص 473.
- (5) المراكشي: الاستبصار، ص 87.
- (6) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 38.
- (7) الكندي: فضائل مصر، ص 53.
- المخزومي: المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، 1986م، ص 6-7.
- المراكشي: الاستبصار، ص 89، وابن دقماق: الانتصار، ص 53.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

وساهم محصول قصب السكر في ازدهار الحياة الاقتصادية، فاشتهرت مدينة دمياط بزراعته يقول ابن ظهيرة⁽¹⁾، وكان القدان فيها من القصب يخرج منه السكر اربعون قنطارا بالقوى وهو مئة قنطار بالمصرى".

واكتسب الاقليم شهرة فائقة في زراعة الفواكه، فانتشرت زراعة البطيخ العبدلى أو العبدلاوى بدميرة⁽²⁾، التى عرفت بجودته.⁽³⁾

كما انتشرت مزارع الرمان بوفرة فى الدقهلية والمرتاحية⁽⁴⁾، وأشمون الرمان فكان يحمل منها إلى مصر⁽⁵⁾، وكذلك اشتهرت دمياط بزراعة الموز بوفرة ومنها كان ينقل إلى مصر.⁽⁶⁾

2- الثروة الحيوانية:

ومن عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية فى الاقليم توفر الثروة الحيوانية، فاشتهرت مصر بتربية أجود الأبقار التى نالت اعجاب الكندى⁽⁷⁾، إذ يقول " وبقر مصر ليس فى الدنيا اعظم منها حتى أن العفو⁽⁸⁾، منها يساوى أكثر من عفور ثور من غيرها"، كما اشتهرت قرية البشمور⁽⁹⁾، بتربية الأغنام فيذكر ياقوت⁽¹⁰⁾ " وفى البشمور كباش ليس فى الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظم الألبان".

وكذلك ساهمت الثروة السمكية فى انتعاش الحياة الاقتصادية، وساعد على ذلك موقع الدلتا وسط شبكة واسعة من الخلجان والترع والبحيرات فأدى ذلك إلى توفر الأسماك

-
- = - المقریزی : الخطط، ج1، ص 212.
- الحميرى : الروض المعطار، الطبعة الثانية، تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 439.
- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة، ص 54.
- (1) الفضائل الباهرة، ص 54.
- (2) عبد اللطيف البغدادى: الافادة والاعتبار، ص 33.
- (3) المقدسى: أحسن التقاسيم ، ص 196.
- (4) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص 35.
- (5) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، ج1، ص 25.
- (6) نفسه ، ص 23.
- (7) فضائل مصر، ص 69.
- (8) العفو خيار الشئ وأجوده. انظر: الزبيدى: تاج العروس، المجلد الحادى عشر، بيروت، ص 247.
- (9) البشمور من قرى محافظة الدقهلية، انظر: ابن ممتى: قوانين الدواوين، ص 87.
- (10) معجم البلدان، ج1، ص 428، والقمرانى: أخبار الدول، ص 432.
- القزوينى: آثار البلاد، ص 155.
- عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت ، الطبعة الأولى، الكويت، 1981، ص 35.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

بكميات وفيرة ، فاشتهرت الاسكندرية بكثرة أصناف الأسماك المختلفة الأنواع والأشكال⁽¹⁾، فمنها سمكة العروس⁽²⁾، والسرب والترسة ، وتسمى الجاه وهى سلحفاه وكان يقطع لحمها ويبيع⁽³⁾، ونستدل على رواج الحياة الاقتصادية بالاسكندرية برخص أسعار الأسماك فيذكر المقرئ⁽⁴⁾ عن عملية البيع والشراء " بأقل القيم وأبخص الأثمان". ومن أشهر الأسماك بالنيل سمكة الرعاد⁽⁵⁾، يبلغ طولها حوالى ذراع⁽⁶⁾، وأشتهر ثغر نستراوة⁽⁷⁾، بكثرة الأسماك⁽⁸⁾، فمنها الحوت البورى⁽⁹⁾.

وكذلك كانت تنيس ذات شهرة فائقة فى انتاج الأسماك فيحدثنا الجغرافيون العرب بأنه كان بها حوالى تسعة وسبعين صنفا من الأسماك المختلفة بل كان بها ما لا يوجد فى مكان آخر من العالم .⁽¹⁰⁾

ومن أشهرها سمك الدلفين⁽¹¹⁾ ، ونلمس اثر الثروة السمكية بتنيس فى ازدهار الحياة الاقتصادية من جملة المتحصل من مصايد الأسماك فى كل سنة بحوالى خمسين ألف دينار.⁽¹²⁾ كما ساهم ثغر دمياط بنصيب كبير فى انتاج الأسماك فكان يباع هناك على مدار السنة ويصدر إلى كافة الاقاليم⁽¹³⁾، واعتاد أهالى رشيد على تمليح الدليس⁽¹⁴⁾ وبيعه إلى كافة الاقاليم.⁽¹⁵⁾

(1) عبد اللطيف البغدادى: الافادة والاعتبار، ص 43.

(2) ابن حوقل : صورة الارض ، ص 146.

(3) عبد اللطيف البغدادى: الافادة والاعتبار، ص 43.

(4) الخطط، ج1، ص 169.

(5) الكندى: فضائل مصر، ص 67، والمسعودى : مروج الذهب، ج1، ص 356.

- المراكشى : الاستبصار، ص 46، الرعاد نوع من السمك إذ مسه الانسان ارتعدت يده ما دام السمك حيا .

- انظر الحميرى : الروض المعطار، ص 587.

- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز : القاهرة، 1990م، ص 268.

(6) المسعودى : مروج الذهب ، ج1، ص 356.

(7) ثغر نستراوه بلدة بين البحر المتوسط وبين البحيرة المعروفة بها وتبعد عن النيل مسيرة نصف يوم . انظر :

ابن دقماق : الانتصار، ص 113.

(8) ابن حوقل : صورة الارض، ص 131.

(9) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، ج1، ص 22.

(10) القزوينى: آثار البلاد ، ص 178.

- ابن سام : انيس الجليس فى أخبار تنيس ، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال، مجلة المجمع العلمى

العراقى مجلد 14 لسنة 1967م، ص 186.

(11) ابن حوقل: صورة الارض، ص 146، وعبد اللطيف البغدادى: الافادة والاعتبار، ص 43.

- المراكشى : الاستبصار، ص 46، الدلفين كلمة يونانية عربية الدحسو هى من دواب البحر الكبيرة .

انظر عبد اللطيف البغدادى: المصدر السابق، ص 39 حاشية (10).

(12) ابن بسام : انيس الجليس ، ص 187

(13) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص 35.

(14) من أنواع السمك المشهور.

(15) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص 343.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

وكذلك ساعد توفر الطيور بمختلف أنواعها في ازدهار الحياة الاقتصادية فكان بتنيس طيور كثيرة يصفها ابن بسام⁽¹⁾ بقوله : " وفي هذه البحيرة أطيار تأتيها في أوقات مختلفة حتى أن منها ما قد شوهد بالمشرق ومنها ما قد شوهد بالمغرب وفي بلاد الروم ". من أهم أنواع الطيور⁽²⁾ ، السلوى⁽³⁾ والسمانى فكان أهالى تنيس يصطادونه من على أبواب دورهم⁽⁴⁾ ، كما يوجد طائر السمان بالفرما⁽⁵⁾، ودمياط⁽⁶⁾.

3-الثروة المعدنية:

ساهمت مواد الخام المعدنية فى ازدهار الحياة الاقتصادية بالدلتا، فتوفرت الفضة بأرض الإقليم فيما بين قطيا والواردة⁽⁷⁾ ، حيث يقصدها أصحاب المطالب من الناس ويحفرون فى كيماها فيعثرون على دراهم من الفضة الخالصة الثقيلة الوزن ذات الفائدة القصوى⁽⁸⁾. وكذلك كان لمعدن النطرون أهمية اقتصادية فائقة فيوجد بناحية الطرانة⁽⁹⁾، من أعمال البحيرة⁽¹⁰⁾، وبفاقوس وينقسم النطرون إلى نوعين احمر وأخضر⁽¹¹⁾، ويشتد الطلب على الأخضر لفائدته العظيمة فيستخدمه الحياك فى القماش⁽¹²⁾، ولندرة هذا المعدن فانه يدر ربحا وفيرا ونستدل على ذلك من قول الفلقشندى⁽¹³⁾ " لا يعرف فى الدنيا بركة صغيرة يستغل منها نظيرها فانها تغل نحو مائة فدان تغل نحو مائة الف دينار " ويؤكد الخالدى⁽¹⁴⁾ على أهمية المعدن بقوله " بركة النطرون وهو معدن لم يكن بالدنيا نظيره ومتحصلها فى كل سنة نحو من مائة ألف دينار ".

-
- (1) انيس الجليس : ص 187.
(2) لمزيد من التفاصيل عن انواع الطيور ارجع للملحق الرابع بالرسالة.
(3) ياقوت : معجم البلدان ، ج2، ص 52.
- الفزوينى: آثار البلاد، ص 177.
(4) المراكشى : الاستبصار، ص 88.
(5) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص 209.
(6) طافور : رحلة طافور ، ص 62.
(7) الواردة من البلاد التابعة للجفار وتقع شرقى المنزلة . انظر : المقرئى : الخطط، ج1، ص 184.
(8) المقرئى : الخطط، ج1، ص 227.
(9) الطرانة تقع على الجانب الغربى للنيل تابعة لمركز كوم حماده، انظر الوطواط: مباحث الفكر ، ص 134.
(10) ابن ممتى: قوانين الدواوين : ص 334. ابن دقماق: الانتصار، ص 103.
- الفلقشندى : صبح الأعشى، ج3، ص 283، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 35.
(11) ابن ممتى: المصدر السابق، ص 334.
(12) ابن شاهين : المصدر السابق، ص 35.
(13) صبح الاعشى، ج3، ص 284.
(14) المقصد الرفيع (مخطوط) ورقة 86.

كما زخر الإقليم بمعادن أخرى كحجر المغناطيس الذي يتوفر بكثرة في جبال القلزم المتصلة بجبل المقطم⁽¹⁾، وكذلك اشتهرت بحيرة المنزلة بوفرة الملح الذي يصدر منها إلى كافة أنحاء مصر.⁽²⁾

وتعد خامات اللؤلؤة في البحر الأحمر من أهم المعادن حيث يوجد النوع المعروف بالقلزمي⁽³⁾، زنة الأجزاء الكبيرة حوالى خمسة مثاقيل ويبلغ ثمنه حوالى ثلاثين ألف دينار.⁽⁴⁾

وأخيرا معدن النفط بساحل البحر الأحمر فيسيل دهنه من قمة الجبل تدريجيا إلى أسفل حيث يتجمع فتحمله العرب إلى الخزائن السلطانية.⁽⁵⁾

ثالثا : استتباب الأمن:

وحرص الخلفاء الفاطميون على استتباب الأمن في ربوع البلاد بالرغم من قيام عدة ثورات في أنحاء متفرقة بالإقليم فأخذ الخلفاء الفاطميين على عاتقهم مهمة القضاء عليها، ويتضح ذلك عندما عجز الخليفة المستنصر بالله⁽⁶⁾، الفاطمي عن اخماد الفتنة الداخلية بالبلاد، فعجل باستدعاء بدر الجمالي⁽⁷⁾، سنة 467هـ / 1074، فشرع في بادئ الأمر بتأمين

(1) الوطواط : مباحج الفكر ، ص 138.

- الدمشقي : نخبة الدهر ، ص 232.

(2) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص 34.

(3) نسبة إلى مدينة القلزم بساحل البحر الأحمر.

(4) يحيى بن ماسويه: الجواهر وصناعاتها، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م، ص 36.

وكان مغاص اللؤلؤة القلزمي بالقرب من جبل الطور بسيينا انظر:

- ابن الاكفاني: نخب الذخائر في أحوال الجواهر، تحرير انستانس مارى الكرملى ، المطبعة

العصرية، القاهرة، 1939م، ص 32.

- وكانت جوهرة اللؤلؤة علنوعين عذب المذاق عمانى ومر المذاق قلزمى وكلاهما يرسب في

الماء والمصنوع منه تجده مر المذاق مع دسومة فيه وهو ضعيف الوزن يطفو على الماء.

- الجاحظ : التبصر بالتجارة، ص 11.

(5) القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص 284.

(6) المستنصر بالله ابو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله ولد يوم

الثلاثاء 16 جمادى الأولى سنة 420هـ / 1029م بالقاهرة وفى عهده حدثت الشدة العظمى: انظر المقرئى

: اتعاط الحفنا، ج2، ص 184.

(7) بدر بن عبد الله الجمالى أبو النجم أمير الجيوش أرمنى الأصل اشتراه جمال الدولة من عمار غلاما

فتربى عنده ونسب إليه وتقدم فى الخدمة حتى ولى اماره دمشق للمستنصر سنة 455هـ / 1063م ثم

استدعاه إلى مصر لخماد الفتنة ، انظر:

الدلتا فتوجه على رأس حملة إلى عرب لواته وأنزل بهم هزيمة ساحقة، ثم سار إلى دمياط وتمكن من اخماد جذور الفتن الداخلية بشرق الدلتا ، ولا تقل أهمية الاسكندرية عن منطقة شرق الدلتا في الأهمية، فأصر على إعادة الهدوء إلى تلك المدينة فحاصرها ونازل الثوار وهزمهم. (1)

كما حرص الفاطميون على استتباب الأمن، فأمن الناس على تجارتهم ولقد لفت انتباه الرحالة ناصر خسرو فسجل انطباعه عن هذا الأمن بقوله "أما الأمن الذى رأيه فأنى لم أره فى بلد من قبل ويمضى - ناصر خسرو - فى مواضع اخرى من كتابه " بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والسيارة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن احد يجرؤ على مد يده إلى شئ منها". (2)

وهكذا ساعد توافر مواد الخام الزراعية والمعدنية على انتعاش الحياة الاقتصادية بالاقليم فضلا عن استتباب الأمن، كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا فيما حققه الاقليم من ازدهار اقتصادى.

= - الزركلى: الاعلام، الجزء الثانى، الطبعة الثانية، مطبعة كوستاتوماس، القاهرة، 1954م، ص 45.
(¹) ابن ميسر : اخبار مصر، الجزء الثانى، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسى، للاثار الشرقية، القاهرة، ص 41.

(²) ناصر خسرو : سفرنامه، ص 64.

الفصل الثاني

عوامل تدهور الحياة الاقتصادية

أولاً: العوامل الداخلية " الاضطرابات السياسية ":

- 1- ثورة أبي ركة.
- 2- ثورة السودانيين.
- 3- التنافس على السلطة.

ثانياً: العوامل الخارجية:

- 1- تهديد القرامطة.
- 2- التهديد الصليبي.

ثالثاً: العوامل الطبيعية

الفصل الثاني

عوامل تدهور الحياة الاقتصادية

و ما لبثت الحياة الاقتصادية ان تدهورت في العصر الفاطمي الأخير وسوف نتحدث عن اهم عوامل تدهور الحياة الاقتصادية في هذه الفترة.

أولاً: العوامل الداخلية "الاضطرابات السياسية الداخلية":

ساهمت عوامل عديدة في تدهور الحياة الاقتصادية بالاقليم كالفوضى السياسية التي شهدتها البلاد على المسرح السياسي، والتي تمثلت في قيام ثورات في أنحاء متفرقة بالاقليم والتنافس بين الوزراء على السلطنة، واسناد الخلافة إلى خلفاء في نعومة أظفارهم وفرض الوصاية عليهم.

1- ثورة أبى ركة: (1)

ومن أخطر الثورات التي قامت بالاقليم ، والتي أثرت على النشاط الاقتصادي وامتد أثرها إلى تهديد الخفاء الفاطميين أنفسهم ، فأرسلوا عدة حملات لاختادها ورصدت أموال طائلة لهذا الهدف فيذكر النويري (2) " أن جملة ما أنفقوه ألف ألف دينار".

والثائر هو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي المعروف بأبى ركة ، ولد بالأندلس ونشأ بها وأطلق على نفسه عدة ألقاب منها الثائر بأمر الله والمنتم من أعداء الله ، ثم نزح إلى بلاد المغرب، ونزل بمدينة القيروان (3) اتخذ بها مكتبا لتعليم الأطفال القرآن ،

(1) لقب بأبى ركة لحملة ركة للوضوء على عادة الصوفية. انظر:

- ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الجزء السابع، الطبعة الأولى، تركيا 1358هـ، ص 233.

- ابو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، الجزء الرابع، دار البحار، بيروت 1960م، ص 31.

- الذهبى : العبر فى خبر من غبر، الجزء الثالث، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1961م، ص 62.

- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الرابع ، دار الكتب اللبنانى، بيروت 1983م، ص 121.

- المقريزى : اتعاظ الحنفاء، الجزء الثانى ، تحقيق محمد حلمى احمد، المجلس الأعلى للشنون الاسلامية، القاهرة، 1971م، ص 60 حاشية (2).

(2) نهاية الأرب، ج 26 (مخطوط) ورقة 55 دار الكتب المصرية، رقم 549 معارف عامة ميكروفيلم 42151.

(3) القيروان من أكبر مدن افريقيا تبعد عن البحر حوالى أربعة فراسخ.

- (ناصر خسرو: سفرنامه، ص 44) شيدها عقبة بن نافع الفهري واتخذها حاضره لملكه فى بلاد المغرب وقسمها إلى احياء ووزعها على القبائل (الحميرى : الروض المعطار، ص 486-487). وتتميز القيروان بموقعها فى منطقة كثيفة الأشجار.

- (ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق هنرى ماسيه، ليدن، ص 196) وسكن القيروان اخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مصر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل خراسان (البغوي : البلدان، ليدن 1891م، ص 348).

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

الكريم⁽¹⁾، ثم رحل إلى برقة⁽²⁾، وأخذ من أحد اليهود حوالى الف دينار، وحصل من الأهالى على مائتى الف دينار وضربت السكة باسمه⁽³⁾، وسار أبو ركوته إلى الاسكندرية ثم إلى الفيوم⁽⁴⁾، وفتح هناك مكتبا كعادته ثم عاد إلى مصر وتوجه إلى سبك الضحاك⁽⁵⁾، ثم عزم على الرحيل إلى إقليم البحيرة حيث انضم إلى قبيلة بنى قري مستفيدا من حالة التوتر بينهم وبين الخليفة الحاكم بأمر الله (386هـ / 996 = 411هـ / 1020م) الذى أرسل جيشا بقيادة ابن الفتيان التركى لتأديب بنى قرة فأنزل بهم هزيمة نكراء⁽⁶⁾، واستفحل أمر ابى ركوته فاستخرج الأموال واقطع بنى قرة أعمال مصر مثل دمياط وتنبس والمحلة⁽⁷⁾، وتناول على الخلافة الفاطمية فبايعد بنو قرة بالخلافة⁽⁸⁾.

والتف حوله حشد كبير من أعوانه، فأصبح يهدد الخلافة الفاطمية فأصر الحاكم على القضاء على ذلك الثائر فأرسل جيشا بقيادة فانيال الطويل التركى للقضاء عليه فى منتصف

- = - وتشتهر القيروان باصناف اللحوم الجيدة والفاكهة وهى فرضة المغرب ومتجر البحرين .
- (المقدسى : احسن التقاسيم ، ص 224-225).
(¹) النويرى : نهاية الأرب، جـ 26 (مخطوط) ورقة 54.
(²) تقع مدينة برقة بين الاسكندرية وافريقيا (ياقوت : المشترك، ص 52، الحميرى: الروض المعطار، ص 91) تبعد عن القيروان ميلا وتتميز بخصوبة تربتها.
- ابن الفقيه : البلدان، ليدن 1302هـ، ص 79) تم فتحها على يد القائد عمرو بن العاص سنة 21هـ/ 641م. (الحميرى: الروض المعطار، ص 291) وصالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار يؤدونها جزية (ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 170) وبرقة بها جبلان شرقى تسكنه لخم وجذام ومراد وغربى تسكنه لواته ومزاتة وهواره.
- الدمشقى : نخبة الدهر، ص 149.
(³) ابن العماد : شذرات الذهب ، الجزء الثالث، المكتبة التجارية، بيروت، ص 148.
- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج 4 ، ص 215.
(⁴) من أعظم مدن الصعيد على بعد من القاهرة مرحلتان، وهى ذات بساتين وأشجار وفواكه وغللات (الأدريسى : نزهة المشتاق، ص 327) وتشتهر بمحصول الأرز.
- ابن حوقل : صورة الارض، ص 149) وعرفت بالفيوم لأن خراجها الف دينار كل يوم .
- الحميرى : الروض المعطار، ص 445، وارضها مختلفة التربة بين الابليز المحض والطين المختلط بالرمل الذى يساعد على الزرع.
- الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده، المطبعة الأهلية، القاهرة 1898م، ص 5.
- وتشتهر الفيوم بكثرة المياة (العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة ، القاهرة 1312هـ، ص 174) وتشتهر بجودة القمح الموصوف بها (اليعقوبى : البلدان، ص 331).
(⁵) سبك الضحاك من أعمال المنوفية مركز الباجور.
- ابن ممتاى: قوانين الدواوين، ص 147، الوطواط: مباحج الفكر، ص 113.
- ابن الجيعان ك التحفة السنية باسماء البلاد المصرية، القاهرة 1974م، ص 105.
(⁶) النويرى : نهاية الأرب، جـ 26 (مخطوط) ورقة 54.
(⁷) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 61.
(⁸) النويرى : نهاية الأرب، جـ 26 (مخطوط) ورقة 54.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

شعبان سنة 395هـ / 1005م فانزل بهم أبو ركوته هزيمة ساحقة ترتب عليها قتل فانيال وعدد كبير من جيشه والاستيلاء على امتعتهم ولم تفت تلك الهزيمة في عضد الخليفة الحاكم بأمر الله . فأرسل حملة في شهر ربيع الأول سنة 396هـ / 1005م والتقت مع بنى قرة في منطقة الحمام⁽¹⁾، ولم تحرز انتصارا بل باءت بالفشل الذريع وكان مصيرها مثل الحملة السابقة. كما ارسل الحاكم بأمر الله حملة ثالثة بقيادة الحسن بن فلاح لقتال أبى ركوته في منطقة ذات الكوم فحلت بجيش الحاكم هزيمة ساحقة ونالت نفس مصير الحملات السابقة فأدى ذلك إلى تفشى حالة من الذعر والخوف يقول ابن الأثير⁽²⁾ " وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره، وأمر الحاكم من عنده من العسكر بالعبور إلى الجيزة" وهنا لجأ الحاكم إلى الحيلة والدهاء لتنفيذ خطته للقضاء على أبى ركوته وتمكن من هزيمته ، وقتل اعدادا كثيرة وتفرق شمله فطارده جيش⁽³⁾ الحاكم إلى قوص⁽⁴⁾. ومنها إلى بلاد النوبة ونزل بحصن الجبل وتظاهر بأنه رسول من قبل الحاكم بأمر الله إلى ملك النوبة ، وعندما علم بذلك الفضل (قائد الجيش الفاطمي) أرسل إلى صاحب حصن الجبل بخبرة بحقيقة أمر الثائر ويأمره بالقبض عليه.⁽⁵⁾

وقامت قبيلة ربيعة⁽⁶⁾ بدور هام في مساعدة الحاكم في القبض على الثائر أبى ركوته فتمكن شيخها أبو المكارم هبة الله من القبض عليه في دير أبى شنودة في أطراف النوبة

(1) توجد عدة قرى تحمل اسم الحمام منها واحدة بقسم ابنوب شرقى النيل وقرية أخرى جنوب أدفو من أعمال اسنا وثالثة في أول بلاد الفيوم. انظر المقرئى : اتعاظ الحفنا ، ج 2، ص 62 حاشية (1).

(2) الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع، بيروت، 1966، ص 201.

(3) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج9، ص 201.

(4) قوص من اعظم مدن الصعيد (المقرئى : الخطط، ج1، ص 236) تقع على الجانب الشرقى لنهر النيل (الوطواط : مباهج الفكر ، ص 96، الحميرى : الروض المعطار، ص 484) ويقيم بها متولى الحرب الصعيد وقاضى القضاة (ابن دقماق: الانتصار، ص 38) وقوص اصبحت عملا مستقلا فى العصر المملوكى (الأدفوى : الطالع الصعيد ، تحقيق سعيد محمد حسن، القاهرة، 1966م، ص 13) وكانت قوص محاطة بسور من الحجر وأكثر انبثتها من الحجارة الكبيرة . (ناصر خسرو : سفرنامه، ص 71) قوص مدينة عظيمة بها خيرات عميمة بساتينها مورقة وأسواقها مونة وبها المساجد الكثيرة والمدارس الاثيرة وهى منزل ولادة الصعيد (ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، ج1 ، ص 41) وقوص شرقى النيل وهى موضع الحرث والزرع (العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، ص 174) وتشتهر قوص بالتمر الذى يجلب إلى سائر الاقاليم المصرية. (القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص 397).

(5) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج9، ص 202.

(6) من القبائل العدنانية تنسب إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ويقال ربيعة الفرس لأنه ورث عن والده الخيل.

- الحنبلى : الآثار الرفيعة فى مآثر بنى ربيعة ، الطبعة الأولى، تحقيق د/ عبد العزيز صالح الهاللى، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت 1985م، ص 29.

وعاد به الفضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الجيش وكان في استقباله كبار رجال الدولة الفاطمية، وركب أبو ركوته على جمل وعلى رأسه طرطور وطوف برأسه في البلاد. (1) وعلى الرغم من قتل أبي ركوته فإن الخلافة الفاطمية، لم تفلح جهودها إلا بعد محاولات عديدة أرهقت الخزانة الفاطمية، ورصدت لهذا الأمر أموالاً طائلة، فانعكس ذلك على النشاط الاقتصادي.

كما نؤكد أن خروج القبائل العربية بالبحيرة كبنى قرة والصلحيين أثر على النشاط الاقتصادي فقد ناصبوا الخلافة الفاطمية العداء مما أدى إلى إرسال جيش لكسر شوكتهم فالتقى معهم عند كوم شريك⁽²⁾، في سنة 443هـ / 1051م وهزم جيش الخلافة فأرسلت جيشاً آخر فتغلب عليهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة. (3) وكذلك خرج المغاربة وسيطروا على الريف وسائر أعمال الحوف. (4)

2- ثورة السودانيين:

كما ساعد خروج عناصر السودانيين على تدهور الحياة الاقتصادية، ونستدل على ذلك من قول المقرئى⁽⁵⁾، في معرض حديثه بأنها سبب " الفتنة التي آلت إلى خراب ديار مصر".

وامتدت أيديهم بالتحطيم ونشر الفساد والسلب فعندما اشتعلت نار الفتنة بين طائفة السودانيين والأتراك بسبب مقتل أحد العبيد على يد الأتراك، وتفاقم الأمر الذي أدى إلى

-
- = - قدمت بطون ربيعة إلى مصر سنة 207هـ / 822م وكانوا ينزلون اليمامة وجاءوا إلى مصر في خلافة المتوكل على الله عام 240هـ / 854م.
- المقرئى : البيان والاعراب : تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989م، ص 44.
- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، الجزء الثالث، دمشق 1949م، ص 1000.
- حسن احمد محمود وآخرين : مصر في عصر الطولونيين والاختشيديين، القاهرة، 1960م، ص 26.
- عبد السلام الحبنى : انساب قبائل العرب، الطبعة الأولى، القاهرة 1960م، ص 26.
- وأشار اليعقوبى إلى هجرة ربيعة إلى وادى العلاقى انظر (اليعقوبى: البلدان، ص 334).
- (1) النويرى : نهاية الأرب، ج 26 (مخطوط) ورقة 54-55.
- (2) كوم شريك من أعمال حوف رمسيس (ابن ممتى: قوانين الدواوين، ص 172) وتنسب هذه القرية إلى ابن عبد يغوث بن جزء المرادى من الصحابة حضر فتح مصر وكان في مقدمة جيش عمرو بن العاص، المقرئى : الخطط، ج1، ص 163.
- (3) ابن ميسر : أخبار مصر، ج2، ص 12-13.
- (4) ابن ظافر : اخبار الدول، ص 74.
- (5) اتعاظ الحنفا، ج2، ص 265.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

تصادم الطرفين، وعلى الرغم من مؤازرة ام المستنصر ⁽¹⁾ للسودانيين إلا أنه قد حلت بهم هزيمة ساحقة، وطلب المستنصر من أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي كاتب السر في سنة 45هـ 1062م تسوية الخلافات بينهما لكنهم خرجوا إلى شبرا دمنهور ⁽²⁾، وعاثوا فيها فسادا ⁽³⁾، وتعمدوا تدمير نظام الري لنشر القحط بين الفلاحين بالدلتا. ⁽⁴⁾ ويبدو أثر خروج السودانيين في تدهور الحياة الاقتصادية بالإقليم من قول الذهبي بأن المستنصر أنفق خزائنه في رضاهم. ⁽⁵⁾

وكذلك خرجت طائفة من العبيد إلى مدينة تنيس للمطالبة بأرزاقهم وضيقوا على عامل المدينة الشريف بن حمزة فهرب منهم إلى دمياط فعاثوا بتنيس فسادا ونهبوا الأهالي وقطعوا من معامل السلطان خمسة وعشرين قطعة وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار. ⁽⁶⁾

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من تمرد العنصر السوداني أنه في سنة 527هـ / 1132م تجمع طائفة منهم بإقليم الشرقية، واشتبكوا مع جيش الخلافة في حروب طاحنة. ⁽⁷⁾

ونستدل على تأزم الأوضاع الاقتصادية بسبب خروج عناصر العبيد من قول أبي صالح ⁽⁸⁾ " وكان طائفة من الرجال السودان يعرفون بالجوشية قد طغوا كثيرا وبغوا وامتدت أيديهم إلى قطع الطرقات وأخذ أموال الناس وسفك الدماء " كما يؤيد تلك الحقيقة قول أبي ظافر ⁽⁹⁾ " فكانوا كل يوم يقتلون وزيرا ويعزلونه ".

(1) كانت أم المستنصر إحدى جوارى أبي سعد سهل بن هرون التستري اليهودي فاشتراها منه الظاهر وتزوجها وأنجب منه المستنصر ولذلك أسندت الوزارة لأبي سعد ولذلك كانت تميل لبني جلدتها.

- المقرئى : الخطط، ج1، ص 350.

- المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج2، ص 266.

(2) ومن ضواحي القاهرة وتعرف من أيام الأيوبيين باسم شبرا الخيمة وسميت شبرا دمنهور نسبة إلى مدينة قريبة منها تحمل اسم دمنهور ، انظر:

- المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج2، ص 266 ، حاشية (3).

(3) ابن ميسر : اخبار مصر، ج2، ص 25 ، المقرئى : الخطط، ج1، ص 335.

- المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج2، ص 266.

(4) ستانلى لتبول: سيرة القاهرة، الطبعة الثانية، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 143.

(5) الذهبي : العبر فى خبر من غبر، ج3، ص 257.

(6) المسبحى: أخبار مصر، تحقيق وليم ج مليورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ص 174-175.

- المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج2، ص 157.

(7) ابن ميسر : أخبار مصر، ج2، ص 118.

(8) كنائس وأديرة مصر، اكسفورد 1984م، ص 34.

(9) أخبار الدول المنقطعة ، تعقيب أندريه فريه، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة 1972م، ص 74.

3- التنافس على السلطة:

وساعدت الفوضى السياسية التي شهدتها البلاد في العصر الفاطمي الثاني على تدهور الحياة الاقتصادية بالدلتا، ومن مظاهر الفوضى السياسية زيادة سلطة الوزراء الفاطميين واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء فأقدم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على تولية أبي القاسم أحمد بن المستنصر الخلافة ولقبه "بالمستعلي بالله" في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة 487هـ/ 1094م وأقصى أخاه نزاراً رغم أحقيته بالخلافة.⁽¹⁾

وقد ترتب على ذلك اضطراب الأوضاع الاقتصادية بالإقليم فانحاز أهل الإسكندرية وواليها الفاطمي إلى نزار وبايعوه بالخلافة ولقبوه "بالمصطفى لدين الله"⁽²⁾ وفي سنة 488هـ/ 1095م خرج الأفضل من القاهرة على الإسكندرية للقضاء على حركة نزار وأفتكين ولكن منى الأفضل بهزيمة ساحقة ورجع إلى القاهرة مما أتاح الفرصة لنزار وأتباعه للنهب والسطو على الأهالي بالدلتا.⁽³⁾

ومن مظاهر الانحلال السياسي الذي أثر على الحياة الاقتصادية تنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزارة الذي تجلى منذ عهد الخليفة الحافظ فقطع "بهرام الأرمي" وإلى الغربية في هذا المنصب فاضطر إلى توليته الوزارة⁽⁴⁾، وعندما اشتدت سطوة الأرمي في عهد هذا الوزير بعث أمراء الجيش وقواده إلى "رضوان بن ولخشي" وإلى الغربية يطلبون منه انقاذهم مما لحق بهم فقدم إلى القاهرة وخلف بهرام مع الوزارة سنة (530هـ - 531هـ = 1135 - 1136م) وتلقب بالملك الأفضل.⁽⁵⁾

ثانياً: العوامل الخارجية:

1- تهديد القرامطة:⁽⁶⁾

ومن العوامل السياسية التي ساعدت على تدهور الحياة الاقتصادية بالدلتا خروج القرامطة وزحفهم صوب مصر، ونشر الفساد والاضطراب في مدن الإقليم وبدأ النزاع بين

(1) ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، ص 60، المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص 12.

(2) ابن ميسر: المصدر السابق، ص 61، والمقرئزي: المصدر السابق، ص 13.

(3) المقرئزي: المصدر السابق، ص 14.

(4) المقرئزي: الخطط، ج2، ص 17.

(5) ابن ميسر: مصدر سابق، ص 124 - 125.

(6) كان ظهور القرامطة ببلاد البحرين على يد يحيى بن المهدي الذي توجه إلى القطيف ونزوله لعلى بن المصلى بن حمدان مولى الزيديين من غلاة الشيعة وأظهر إلى يحيى انه رسول المهدي في سنة 281هـ/ 894م وأخبرته بأنه خرج إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره وأن ظهوره قد أوشك فأرسل على بن المصلى إلى الشيعة يحسبهم للانضمام إليه من أهل القطيف، كما راسل سائر قرى البحرين في سنة 287هـ/ 900م وأخذ القرامطة يشنون غاراتهم على بلاد هجر والبلاد المجاورة. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص 493 - 494.

القرامطة والفاطميين عندما استولى الجيش الفاطمي على دمشق سنة 359هـ/ 969م بقيادة جعفر بن فلاح وطالبه أمير القرامطة الحسن بن أحمد بن أبي سعيد بالجزية التي كان يأخذها من الأخشيديين، ومقدارها ثلاثمائة ألف دينار سنوياً، ولكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الأتاوة مما تسبب عنه زحف القرامطة صوب مصر في أواخر سنة (1) 360هـ/ 970م، وهجموا على مدينة القلزم ونهبوا والى المدينة عبد العزيز بن يوسف. (2)

كما هجم القرامطة على مدينة تنيس في سنة 362هـ/ 972م ودارت بينهم وبين أهل تنيس حروب طاحنة نجم عنها هزيمة القرامطة وأسر طائفة منهم وبطبيعة الحال أثرت هذه الغزوة على الحياة الاقتصادية "بتنيس" وهو الأمر الذي نلمسه من قول المقریزی (3) "واشتد خوف الناس في المقابر حتى كانوا يصلون على الجنائز ولا يتبعونها".

ولم يقف القرامطة عند هذا الحد من التخريب ونسر الرعب والفساد ففي العام التالي سنة 363هـ/ 973م نهبوا الأهالي وحصلوا الخراج من الدلتا ووصلوا إلى مدينة المحلة. (4)

2- التهديد الصليبي: (5)

من أهم العوامل التي ساهمت في تدهور الحياة الاقتصادية الخطر الصليبي ولن أتعرض لدراسة الحروب الصليبية من حيث دوافعها وتتبع خط سير الحملات إلى مدن الشرق الإسلامي ونتائجها، وما وجهته تلك الحملات من مقاومة عنيفة وموجة التحدي بين الشرق والغرب في العصور الوسطى لأن ذلك خارج نطاق دراستنا، أما سابرز أثر اعتداءات الصليبيين ، وما ارتكبه من تخريب وحرقت ونهب وسطو على مدن الإقليم.

وقد ترتب على ذلك، أسوأ النتائج في الحياة الاقتصادية، فلم يكن الغزو الصليبي للشرق الإسلامي في عام 490هـ/ 1097م يستهدف خدمة الصليب ، كما قد يتوهم البعض وإنما كان سعياً لتحقيق مكاسب اقتصادية في بلاد المسلمين واستغلال متاجرها ومواردها (6)

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج8، ص 614- 615.

- ابن المحاسن: النجوم الزاهرة، ج4، ص 58.

(2) المقریزی : اتعاظ الحنفا، ج1، ص 129.

(3) المقریزی: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 142.

(4) نفسه، ص 202.

(5) سميت تلك الحروب صليبية لأن محاربي الفرنجة كانوا يضعون علامة الصليب على ثيابهم وأسلحتهم انظر: قدرى قلجى : صلاح الدين الأيوبي، دار الكاتب العربي، بيروت، 1966م، ص 30.

(6) سعيد عاشور : الحركة الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة، 1963م، ص 32.

- على حسين سليمان: النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة، 1981م، ص 48.

وعلى الرغم من الصعوبات التي تعرضت لها الحملة الصليبية الأولى ، فقد نجحت في تأسيس ثلاث أمارات في الرها وطرابلس⁽¹⁾ ، وانطاكية⁽²⁾ ، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس ، وبعض الامارات الصليبية في الشرق.⁽³⁾

وترتب على هذا الحادث اضطراب بالغ أدى إلى توقف العلاقات التجارية بين مصر والشرق والعراق وبين مصر وأوروبا من جهة ثانية.

فالطريق البرى المتجة إلى دمشق والحجاز عبر الدلتا بات مهددا بالمخاطر العظيمة التي تجعل السير فيه ضربا من ضروب المستحيل بسبب غارات صاحب حصن الكرك⁽⁴⁾ المستمرة ونهب قوافل المسلمين.

وأدى ذلك التهديد الصليبي لطرق المواصلات التي تربط مصر ببلاد شبه الجزيرة العربية إلى البحث عن طريق أكثر أمنا فاتجه التجار والحجاج صوب الجنوب الأمر الذي أثر على النشاط الاقتصادي بالدلتا يقول المقرئ⁽⁵⁾ " أعلم ان الحاج المصرى والحاج المغربى أقاموا نحو ما بين سنتين يتوجهون إلى مكة من صحراء عيذاب⁽⁶⁾ ، فيركبون من

(¹) تقع مدينة طرابلس الشام في الاقليم الرابع وتطل على ساحل البحر المتوسط، انظر:

- ياقوت : معجم البلدان ، ج4، ص 26.

(²) مدينة انطاكية من اعظم مدن بلاد الشام تقع على طرف البحر وهى قسبة الثغور الشامية، وهى من أعيان البلاد موصوفة بالزاهة والحسن وتشتهر بالمزارع والبساتين والفواكه. انظر:

- ياقوت : معجم البلدان، ج1، ص 266.

- القزويني: آثار البلاد، ص 150.

(³) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 1966م، ص 450.

(⁴) من أعظم حصون النصارى يقع على طريق الحجاز المتجه إلى القدس على بعد يوم ويشتمل على اربعمائة قرية وتمكن صلاح الدين الأيوبي من فرض الحصار وتشديد الرقابة عليه، انظر:

- الحميرى : الروض المعطار، ص 202- 203.

(⁵) الخطط، ج1، ص 202.

(⁶) "عيذاب" تقع على ساحل البحر الأحمر وتبعد عن وادى العلاقى حوالى أربع مراحل وكانت مراسى المراكب إلى مكة والحجاز واليمن. (اليعقوبى: البلدان، ص 335) وكانت عيذاب ميناء الذهب يأخذه العرب من العلاقى إلى عيذاب يأخذون هذا المعدن من قرب أسوان إلى مصر حوالى نحو من عشر مراحل (الاصطخرى: المسالك، ص 42) وكان أهل عيذاب يعيشون على صيد الأسماك واللؤلؤ ورعى الأغنام. (ناصر خسرو: سفرنامه، ص 63) وعلى حسن الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ، سلسلة أعلام العرب، رقم 73 ، القاهرة 1968م، ص 112) ويكثر بها السمن والعسل واللبن (القرمانى : أخبار الدول ص 466) وبلغت عيذاب فى نهاية القرن الخامس الهجرى درجة عظيمة من الازدهار وغدت من أعظم الموانى التى ترسو فيها مراكب كثير من البلاد لكن الازدهار التى شهدته عيذاب لم يستمر طويلا لتحول طريق قوافل التجارة إلى سيناء، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، مجلة الجمعية المصرية، المجلد 13، القاهرة، 1967م، ص 119.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

النيل من ساحل مدينة القسطنطينية يركبون إبايل⁽¹⁾ ، من قوص إلى صحراء عيذاب ولا تزال عامرة بما يصدر ويورد إليها من قوافل التجارة والحجاج ولم تزل صحراء عيذاب مسلك الحجاج ذهابا وإيابا من سنة خمس وأربعمائة إلى سنة ستين وخمسمائة. ولم يقتصر التهديد الصليبي لمدن الدلتا على قطع طريق التجارة المار عبر الإقليم بل تعداه إلى التدمير والسلب فشهدت مدينة "تنيس" في 8 جمادى الأولى سنة 549هـ / 1154م هجوماً الفرنجة وحلت بالمدينة على أيديهم نقمة الدهر من قتل وأسر وعاثوا بالمدينة فسادا وخربوا اقتصادها ويذكر أبو شامة⁽²⁾ " أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية⁽³⁾ ، وصلت إلى تنيس على حين غفلة من أهلها فهجمت وقتلت ، أسرت ونهبت وعادت بالغانم بعد ثلاثة أيام وتركها صفرا".

كما عاود الفرنجة الاعتداء على تنيس بحملة مكونة من أربعين مركبا سنة 573هـ / 1177م وحصاروها مما أدى إلى فرار أهلها إلى دمياط فساحت لهم الفرصة للنهب والسلب وأشعلوا في المدينة النار وجعلوها خرابا ثم رحلوا⁽⁴⁾ ، في سنة 577هـ / 1181م واعتدى الفرنجة بالسلب على المراكب الراسية بساحل تنيس.⁽⁵⁾ وترتب على الاعتداءات الصليبية المتكررة إصابة صناعة النسيج بضربة قاصمة في أواخر العصر الفاطمي فضلا عن النفقات الباهظة والتي تقدر بالآلاف الدنانير والتي تكلفتها العمليات الحربية بين المصريين والصليبيين.⁽⁶⁾ كما حرص الصليبيون على تخريب مدينة دمياط لأهميتها الاقتصادية، لوقوعها على طريق التجارة العالمية حيث يقصدها التجار في البر والبحر⁽⁷⁾، فلقد حضر لوجيز بن رجا

(1) الإبل اسم جمع وهي مؤنثة لأن اسم الجمع الذي لا يوجد له مفرد يلزمه التأنيث وتدخله الهاء إذا صغر نحو أبيلة وغنيمة والجمع إبال وأبيل.

الفيومي: المصباح المنير، الجزء الأول، الطبعة السادسة، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1926م، ص 2.

(2) الروضتين في أخبار الدولتين : الطبعة الأولى، تحقيق محمد حلمي أحمد، بيروت، ص 99.
(3) تقع جزيرة صقلية في البحر المتوسط وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام (القزويني: آثار البلاد، ص 215) وتبعد عن مالطة حوالي ثمانين ميلا وفتحت في صدر الإسلام (الحميري : الروض المعطار، ص 366-367). وتشتهر بالخيول والبغال والغنم وبالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد (القزويني: آثار البلاد، ص 215)

(4) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، بولاق 1311هـ، ص 50.

(5) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول، القسم الأول، الطبعة الثانية ، تصحيح محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956م، ص 72.

(6) ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية "المقدمة"، تحقيق عبد الرحمن فهمي محمد، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية، القاهرة، 1977م، ص 39.

(7) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، الطبعة الأولى، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م، ص 41.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

صاحب صقلية سنة 550هـ/ 1155م بحملة عدتها ستين مركبا في خلافة الفائز بنصر⁽¹⁾ الله عيسى لتخريب دمياط فعاثوا فسادا وقتلوا وزحفوا إلى سائر مدن الدلتا كتنيس ورشيد والاسكندرية، وتفاقم الأمر عندما حضر ملك الفرنج إلى القاهرة لحصارها وفرض الاتاوة على أهلها واحرق مدينة الفسطاط ونزل على تنيس وأشموم⁽²⁾، ومنية غمر⁽³⁾، بأسطول مكون من عشرين شونة⁽⁴⁾، فقتل وأسر وسبى⁽⁵⁾.

كما وصل الفرنجة في أواخر العصر الفاطمي، في شهر بيع سنة 565هـ/ 1169م على رأس حملة مكونة من ألف مركب بهدف تخريب اقتصاد مدينة دمياط والاستيلاء عليها فعهد الخليفة العاضد (555هـ/ 1160م) لوزيره صلاح الدين بمهمة صد الفرنجة وتكلفت العمليات الحربية حوالى خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار واستمرت الحرب حوالى خمس وخمسين يوما، وتأزم الوضع على أهل دمياط وهم صامدون ولجأ صلاح الدين إلى الحيلة والدعاء لفك حصار الفرنجة عن دمياط فاستنجد بصاحب الشام نور الدين محمود زنكى⁽⁶⁾، بشن الهجوم على الساحل الشامية ، فأدرك الفرنجة خطورة الموقف فى الامارات الصليبية ببلاد الشام ، مما عجل برحيلهم خوفا على مدنهم ، وبالرغم من التدهور الاقتصادى لمصر آنذاك، فان الخليفة العاضد لم يتهاون فى ارسال الامدادات إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لدمياط فأمدته بحوالى ألف ألف دينار ومستلزمات الجند من الملابس وغيرها.⁽⁷⁾

(¹) تولى الحكم وعمره خمس سنين عقب وفاة والده فى مستهل شهر صفر سنة 549هـ/ 1154 وعين الصالح طلائع بن رزيك وزيرا له (ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص 216) وكانت مدة خلافته ست سنوات وشهرين (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ج2، ص 51) وتوفى فى السابع عشر من رجب سنة 555هـ/ 1160 انظر:

- القلقشندي : صبح الأعشى، ج3، ص 427، زامباور: معجم الأسرات، ص 145.

(²) تقع على النيل الشرقى (أبو الفداء: تقويم البلدان: ص 119، ابن دقماق: الانتصار، ص 68) وهى قصبة كورة الدقهلية والبشمور (ابو الفداء: المصدر السابق، ص 119، البغدادى: مرصد الاطلاع، ج1، ص 84، وابن دقماق: الانتصار، ص 68) . وهى مقر الولاية (القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 401).

(³) منية غمر من اعمال الشرقية (الوطواط : مباحث الفكر، ص 111، وابن الجيعان: التحفة السنية، ص 44) تقع شمالي مصر على فوهة النهر المتجه إلى دمياط وتقابلها زفتا (ياقوت : معجم البلدان ج8، ص 218).

(⁴) من أهم السفن الحربية الكبيرة التى يتكون منها الأسطول فى الدول الاسلامية، والشينى هو الاصل الذى يتفرع منه اسماء السفن الحربية الأخرى.

- درويش النجلى: السفن الاسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، الاسكندرية، 1979م، ص 83.

(⁵) المقرئى : الخطط، ج1، ص 214.

- جميل خانكى: البحرية المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948م، ص 143- 144.

(⁶) ولد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن اقسنقر سنة 511هـ/ 1117م والت اليه أمور بلاد الشام وديار الجزيرة.

- أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، الجزء الخامس، دار البحار، بيروت، 1960م، ص 75.

(⁷) ابن الأثير الجزرى : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابية، تحقيق عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963م، ص 143- 144.

الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي

ومن الجدير بالاشارة ان العمليات الحربية التى شهدتها مدينة دمياط من هجوم الفرنجة ، ومحاولة صلاح الدين الدفاع عن المدينة كان لها أثرها السيئ على الحياة الاقتصادية حيث أدت إلى توقف النشاط الاقتصادى بدمياط، الأمر الذى أثر على صناعة النسيج. ومن الثابت أن التهديد الصليبي للدلتا كان موجها للمدن ذات الأهمية الاقتصادية الفائقة وهاجموا مدينة الفرما لأهميتها كمجمع للطرق التجارية⁽¹⁾، ففي سنة 545هـم 1150م عاثوا فى الفرما فسادا.⁽²⁾

وانفقت الدولة الفاطمية أموالا طائلة فلقد انفق العادل بن السلار⁽³⁾، على تجهيز الأسطول ثلاثمائة ألف دينار لحماية الفرما من هجوم الفرنجة سنة 546هـ/ 1151م.⁽⁴⁾ وفى أواخر العصر الفاطمي فى خلافة الأمر بإحكام الله⁽⁵⁾، فى سنة 554هـ/ 1159م توجه الفرنجة على رأس حملة بقيادة بلدوين إلى الفرما فدمروا المدينة وأحرقوها⁽⁶⁾، كما زحف الفرنجة إلى بلبيس وحصروها وملكوها ونهبوا وأسروا.⁽⁷⁾

ثالثا: العوامل الطبيعية:

ساهمت العوامل الطبيعية مساهمة فعالة فى تدهور الحياة الاقتصادية فى الإقليم الذى نتناوله فى هذا البحث، وتتمثل فى عدم انتظام مياه فيضان نهر النيل من زيادة أو نقصان، فالزراعة هى المصدر الرئيسى للاقتصاد المصرى ونجاحها واستقرار الحياة فيها

= ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، الجزء الثانى، الطبعة الثانية، المطبعة الحديثة، النجف ، 1969م، ص 111.

- المقرئى : الخطط، ج1، ص 215، والمقرئى : اتعاظ الحنفا، ج2، ص 316.
- ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، الجزء الأول، تحقيق حسن محمد الشماع ، جامعة البصرة، 1967م، ص 83- 85.

(1) المقدسى : احسن التقاسيم، ص 195.

(2) ابن ميسر: اخبار مصر، ج2، ص 144، والنويرى : نهاية الأرب، ج 26، (مخطوط)، ورقة 92.
- ابن دقماق: الانتصار، ص 53، المقرئى ، الخطط، ج1، ص 212.

(3) من اصل كرى استولى على الوزارة وتلقب بالملك العادل فى سنة 544هـم 1150م.
- عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، دار المعارف، الاسكندرية، 1968م، ص 435.

(4) النويرى: نهاية الأرب، ج 26 (مخطوط) ورقة 92.

(5) تولى الخلافة يوم وفاة المستعلى (القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص 427) وكانت خلافته ثلاثين سنة وثمانية اشهر (ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص 212).

(6) ابن ظافر: أخبار الدول، ص 90، والمقرئى : الخطط، ج1، ص 212.
- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج 3، ص 56.

- محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1978، ص 42.

(7) ابن الأثير التاريخ الباهر، ص 138.

يتوقف إلى حد كبير على فيضان النيل شريان الحياة فإذا كان الفيضان منخفضا استحال رى جميع الأراضي الأمر الذي يعقبه نقص المحصول فتحدث المجاعة.

وكان الخراج يحصل إذا بلغ منسوب المياه ثمانية عشر ذراعا⁽¹⁾، وعند انخفاضها إلى ستة عشر يكون فيه صلاح لبعض الناس، ولا يتم رى البلاد وبالتالي يقل خراج السلطان، مما جعل أهالي تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى بحيرة تنيس يلجأون إلى تخزين المياه.⁽²⁾

وكانت الدولة الفاطمية تحرص على الاهتمام بشئون الرى من اقامة الجسور وبناء القناطر وتطهير الخلجان فكانت زيادة النيل ستة عشر ذراعا تروى أرض مصر غامرها وعامرها⁽³⁾، يقول البغدادى⁽⁴⁾، "ولنسم الثمانية عشر نهاية الضرورى وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها فابتداء الضرورى ستة عشر ذراعا يسمى ماء السلطان إذ عنده يستحق الخراج ويرى به نحو نصف البلاد ويغل من الوقت بمقدار مايمون أهل البلاد سنتهم جمعا مع توسع ويرى سائر البلاد المعتاد بالرى بما زاد على ستة عشر ذراعا إلى ثمانية عشر وهذا يغل مقدار ما يمد أهل البلاد سنتين فصاعدا ، وأما ما تنقص عن ست ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ، ولا يحصل منه ميره سنتهم ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ستة عشر ذراعا.

أما المسعودى⁽⁵⁾، فيقول " فإذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الأرض وريع البلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المراعى والكأ وأتم الزيادة كلها العامة النفع للبلد كله سبع عشر ذراعا وفى ذلك كفايتها ورى جميع أراضيها، وإذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمان عشرة ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع وإن كانت الزيادة ثمان عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر واكثر الزيادات ثمان عشر ذراعا".

(1) ناصر خسرو : سفرنامه، ص 42، والمقريزى : الخطط، ج1، ص 59.

(2) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، ص 343.

- المقريزى : الخطط، ج1، ص 60.

(3) المقريزى : الخطط، ج1، ص 60.

(4) الافادة والاعتبار، ص 77-78.

(5) مروج الذهب ، ج1، ص 342.

- احمد السيد الصاوى : مجاعات مصر الفاطمية، الطبعة الأولى، دار التضامن، بيروت ،

1988م، ص 25.

وفيما يلي بيان لبعض المجاعات التي ألمت مصر بسبب قصور مياه النيل وأثرت بطبيعة الحال في الإقليم موضع الدراسة:

- 1- في سنة 387هـ/ 997م في عهد الحاكم بأمر الله (ت 411هـ/ 1020م) انخفضت مياه نهر النيل حيث بلغت ستة عشر ذراعا واصابع، مما أدى إلى حدوث الغلاء وارتفاع الأسعار واشتد الطلب على القمح وتفاقم الأمر بارتفاع سعر الخبز.⁽¹⁾
- 2- وفي سنة (395هـ/ 1004م) توقف النيل حتى كسر الخليج⁽²⁾، فبلغ منسوب النهر ستة عشر ذراعا وأصابع مما تسبب في حرمان بعض الأراضي من الري الأمر الذي أدى إلى حدوث الغلاء وارتفاع الأسعار.⁽³⁾
- 3- وفي سنة (397هـ/ 1006م) بلغ منسوب النيل ثلاثة عشر ذراعا واصابع فلحق الناس شدة عظيمة من قلة القمح حتى ان التليس⁽⁴⁾، يبيع بثلاثة دنائير الأمر الذي أدى إلى ارتفاع سعر الدراهم وصرف كل دينار بثمانية عشر درهما.⁽⁵⁾
- 4- وفي سنة (398هـ/ 1007م) بلغت زيادة النيل أربعة عشر ذراعا وأصابع فلحق الناس من ذلك شذائد ووقائع البلاد.⁽⁶⁾
- ومثلما حدث في سنوات 399هـ/ 1008م⁽⁷⁾، و414هـ/ 1023م⁽⁸⁾، و422هـ/ 1031م⁽⁹⁾، و444هـ/ 1052م.⁽¹⁰⁾

ولعل أعظم الأحداث التي يذكرها التاريخ المصري الوسيط هي الشدة العظمى المعروفة بالشدة المستنصرية بسبب انخفاض مياه النيل عن منسوبها الطبيعي، مما أدى إلى تفشى الوباء والغلاء لمدة سبع سنين⁽¹¹⁾، يقول المقرئ⁽¹²⁾ " ثم وقع الغلاء في أيام

(1) المقرئ: اغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة 1940م، ص 13.

(2) المقرئ: اغاثة الأمة، ص 14.

(3) أمين سامي: تقويم النيل، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة 1946م، ص 85.

(4) التليس الدقيق مائة وخمسين رطلا. انظر ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص 365.

(5) أمين سامي: تقويم النيل، ص 85.

(6) المقرئ: اغاثة الأمة، ص 16.

(7) أمين سامي: تقويم النيل، ص 85.

(8) المسيحي: أخبار مصر، ص 32.

(9) ابن إياس: نشق الأزهار، طبعة باريس، ص 77.

(10) المقرئ: اغاثة الأمة، ص 17، وابن إياس: نشق الأزهار، ص 78.

(11) المقرئ: اغاثة الأمة، ص 23، الاسحاقى: أخبار الدول، القاهرة، ص 117.

- أمين سامي: تقويم النيل، ص 63.

- راضى غفوس: العوامل الاقتصادية لهجرة بنى هلال وبنى سليم من مصر إلى إفريقيا، مجلة

أوراق، العدد الرابع، 1981م، ص 151.

(12) (اغاثة الأمة، ص 24.

المستنصر الذي فحس أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة واختلال احوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الرى وكان ذلك فى سنة 457هـم 1064-1065م فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة وشمل الخوف وخيفت السبل برا وبحرا".

وبطبيعة الحال ترتب على الشدة المستنصرية ارتفاع الأسعار فبلغ أردب القمح مائة دينار⁽¹⁾، بينما يذكر البعض أن الأردب بيع بثمانين⁽²⁾، دينار وبلغ سعر رغيف الخبز الذى وزنه رطل بأربعة عشر درهما⁽³⁾، وأكلت الناس المينات والجيف والقطط والكلاب⁽⁴⁾، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا⁽⁵⁾، وأشيع بين الناس ان الحبشة سدت مجرى النيل عن أهل مصر، فأمر المستنصر البطريك بالتوجه إلى بلاد الحبشة ويطلب منهم اطلاق مجرى النيل⁽⁶⁾.

وفى شهر شعبان سنة (536هـ/ابريل 1141م) قلت المياه وغلت الأسعار وشحت الحبوب والقمح والشعير فارتفعت أسعارها حتى بلغ الأردب من القمح والشعير فارتفعت أسعارها حتى بلغ الأردب من القمح تسعين درهما وارتفعت أسعار الدقيق والخبز فوصلت الثلاثة أرتال بدرهم، أما الشعير فبلغت الويبة⁽⁷⁾، بسبعة دراهم ، وارتفعت أسعار الزيت بثلاثة دراهم والجبن بدرهمين لكل رطل وبلغ سعر البيضة الواحدة عشر دراهم...إلخ.⁽⁸⁾ كما وقع غلاء فى أيام الفائز بنصر الله أبى القاسم فبلغ سعر الأردب بخمسة دنانير لقصور مائة النيل⁽⁹⁾، وكذلك فى سنة 595هـ / 1198م، بلغ سعر أردب الفول خمسة دنانير والشعير أربعة دنانير بالاسكندرية.⁽¹⁰⁾

ومن العوامل الطبيعية المؤثرة على الحياة الاقتصادية هبوب الرياح الغربية على مدينة رشيد فأثرت على حركة السير وتوقف التعامل فى الأسواق بالبيع والشراء.⁽¹¹⁾

(1) ابن ميسر : أخبار مصر، ج2، ص 58، وابن اياس : نشق الأزهار، ص 79.

(2) المقرئى : اغاثة الأمة، ص 24 الاسحاقى: اخبار الأول، ص 117.

(3) الاسحاقى : اخبار الأول، ص 117.

(4) المقرئى : اغاثة الأمة ، ص 24.

(5) ابن ميسر : اخبار مصر، ج2، ص 58، الاسحاقى: اخبار الأول، ص 117.

(6) ابن اياس : نشق الأزهار ، ص 79.

(7) حوالى ستة عشر قدحا : القلقشندى : صبح الأعشى، ج3، ص 441.

(8) ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، ص 85.

(9) المقرئى : اغاثة الأمة، ص 29.

(10) عبد اللطيف البغدادى: الافادة والاعتبار، ص 95.

(11) المراكشى : الاستبصار ، ص 89.

ويتضح أثر الرياح على أهالي رشيد من نقل منازلهم من وقت لآخر خوفا من التكوينات الرملية بغرب المدينة وجنوبها. (1)
كما أثرت الرياح الشديد التي تهب على مدينة الفرما على حركة التجارة لصعوبة السير على الطرق لتغطيتها بالرمال الكثيفة. (2)

(1) الوطواط : مباهج الفك، ص 137.
(2) المقدسى : احسن التقاسيم، ص 195.